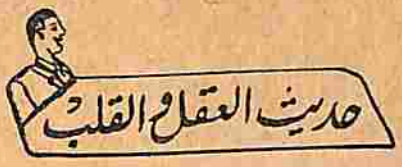

هذه أطراف من الحديث يصدر بعضها عن العقل ويخاطب فيه العقل ويصدر بعضها الآخر عن القلب ويخاطب فيه القلب ، ويرمى كلها على كل حال الى الكشف عن الحقيقة ، وعما تنطوى عليه الحقيقة من معانى الحق والخير والجمال ، والى كل من كان له عقل والقى القلب أقدم هذه الاطراف من حديث العقل لعله ان يتحقق ، ومن حديث القلب لعله أن يتذوق .

أنظار عقلية وأذواق قلبية

هذه صورة حياة روحية تعاقبت على نفس صاحبها الأنظار العقلية حينا والأذواق القلبية حينا آخر ، وتقسم فى أطوارها المختلفة عقل صاحبها وقلبه الشك فى كل شىء أولا ، ثم اليقين فى كل شىء بعد ذلك ، وما فتىء صاحب هذا العقل والقلب كذلك حتى وجد سبيله الى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية .

كان صاحب هذا العقل والقلب مفكرا يروى ويفكر ، ويتأمل وينظر ، ولكنه لم يكن يفكر ويروى فحسب ، ولم يكن يصطنع ما يصطنعه المفكرون من مناهج الفكر وأساليب النظر فحسب ، انما كان كذلك ، وكان شيئا آخر غير ذلك :

كان متكلما مع المتكلمين ، يعنى بالعقائد الدينية التى يعنى بها المتكلمون ، ويصطنع مثلهم منهج النقل والعقل الذى يصطنعون ، ويحاول أن يقر هذه العقائد فى قلوب المعتنقين لها المؤمنين بها اقرارا يقوم على دعائم مستندة الى النظر العقلى ، بالاضافة الى ما تقوم عليه من دعائم مستمدة من الكتاب السماوى والوحى النبوى .

وكان فيلسوفا مع الفلاسفة ، يقبل على الفلسفة ، ويخلص لها ، ويعنى

بها ، ويدرس مناهجها ، ويمحص مذاهبها ، ويعرض آراء أصحابها عرضا موضوعيا أولا ، ثم يعرض لها بعد ذلك بالنقد والتفنيد ، ثم يكون لنفسه أخيرا رأيا فى هذه الآراء ، ويخرج بمذهب فلسفى له بين تلك المذاهب .

وكان صوفيا من أصحاب الأذواق الروحية والأشواق القلبية ، يصطنع الرياضة والمجاهدة ، ويتحقق بالكشف والمشاهدة .

وكان بعد هذا كله مصلحا دينيا وأخلاقيا واجتماعيا ، يؤدى رسالته فى الحياة الاسلامية ، بل فى الحياة الانسانية ، كأحسن ما يؤديها الانسان المسلم المحقق لأرقى معانى الانسانية ، سواء فى حياته العلمية والعملية .

وكان فوق هذا كله مؤلفا واسع الاطلاع ، بعيد الآفاق ، خلف من الآثار فى مختلف المعارف التى عرض لها تراثا خصبا قيما أخص خصائصه الوضوح والجلاء ، والبراعة فى التعبير والروعة فى التحليل والتصوير ، الى ما كان يملك عليه عقله وقلبه وقلمه ولسانه وبيانه من حرارة الايمان وحلاوة اليقين . ولعل أدل مصنفاته عليه ، وأظهرها لنواحى الفكر والروح التى عرض لها ، كتابه « مقاصد الفلاسفة » الذى عرض فيه عرضا موضوعيا علوم الفلاسفة من منطق والهيات وطبيعيات ، وكتاب « تهافت الفلاسفة » الذى نقد فيه مذاهب الفلاسفة وانتهى فيه الى التشكيك فى مناهجهم ونتائجهم ، وكتاب « احياء علوم الدين » الذى يعد بحق موسوعة اسلامية لها خطرها فى تاريخ الحياة الاسلامية من النواحى الدينية والعقلية والروحية والعلمية والعملية ، وكتاب « المنقذ من الضلال » الذى هو مرآة صادقة تتجلى على صفحتها الحياة الروحية والفكرية لصاحبه ، وما اختلف على نفسه وقلبه وعقله من أطوار ، وما انكشف له من الأسرار ، وما أشرق به باطنه من الأنوار .

ولم يكن هذا المفكر الذى تألفت حياته وشخصيته ومؤلفاته من هذه العناصر كلها ، انسانا آخر غير أبى حامد الغزالى الذى كان ولا يزال وسيظل على مدى الأيام ، خليقا بلقب « حجة الاسلام » .

* * *

واذا كانت شخصية الغزالى قد تعددت نواحيها ، وتنوعت آفاقها ومراميها ، بحيث لا يمكن الالمام بها من كل أطرافها فى حديث واحد ، فحسبى أن أقف فى حديث اليوم عند الصورة التى أعطاناها هو لنفسه ولحياته الروحية فى كتابه « المنقذ من الضلال » ، على أن أعرض لنواحيه المتعددة ومذاهبه المتنوعة فى أحاديث أخرى .

فالغزالى يحدثنا فى كتابه « المنقذ من الضلال » عن نشأته وتربيته ، وعن علمه وعمله ، وعما قام به فى هذا العمل من اشتغال بالتدريس فى

المدرسة النظامية ، وعما استوعب من معارف وعلوم ، وعما أعرض عنه من هذا العلم ، وعما أقبل عليه من ذلك العلم ، فيقول انه حصل علم الكلام بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، فطالع كتب المحققين من أهله ، وصنف فيه ما أراد أن يصنف ، ولكنه ما لبث أن وجده علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصوده هو ، ووجد أن هذا العلم لم يكن - على حد تعبيره - فى حقه كافيا ، ولا لدائه الذى كان يشكوه شافيا . وداؤه الذى كان يشكوه هو الشك الذى يشوش العقيدة ويزعزع الايمان ، ويفسد على الانسان حياته وصلته بربه وبأشباهه ، والذى كان الغزالى يلتمس لنفسه منه مخرجا الى اليقين الذى تبدد أنواره ظلمات الشك . ومن هنا نظر الغزالى الى المتكلمين على أن غاية علمهم وان كانت هى حفظ العقيدة من تشويش أهل البدع ، الا أن أدلتهم كانت فى رأيه ضعيفة ، كما أن آراءهم كانت عرضة لأن يعتورها الشك .

* * *

وبعد أن فرغ الغزالى من دراسة علم الكلام ، ولم يجد فيه ما يشبع حاجته ، ويثبت عقيدته ، عكف على الفلسفة والالمام بجملة مذاهبها فاذا هو لا يجحد ما للفلسفة من فضل فى تثقيف العقول لا سيما القسمان الرياضى والطبيعى منها ، واذا هو مع هذا ينكر من الطبيعيات ما فيها من مسائل مخالفة للدين : فالدهريون الذين مجدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجودا ، والطبيعيون الذين استدلوا من عجائب الصنع والحكمة على وجود قادر حكيم ، ولكنهم ذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، والى انكار الآخرة والثواب والعقاب ، والالهيون الذين قالوا بقدم العالم ، وبأن الله لا يعلم الا الكليات فلا يعنى بالجزئيات ، وأن الأجساد لا تبعث وانما الأرواح وحدها هى التى لا يجوز عليها الفناء ، كل أولئك طوائف من الفلاسفة ، وكلهم فى رأى الغزالى كفرة أو زنادقة أو ملاحدة . وانتهى الغزالى من هذا كله الى أن فى الفلسفة خداعا وتلبيسا وتخييلا ، والى أن العقل الذى يصطنعه الفلاسفة عاجز بحججه وأدلته عن كشف الحقيقة اليقينية ، والوصول الى السعادة الحقيقية .

واذا كان ذلك كذلك ، فلابد اذن من أن يلتمس الغزالى طريقا آخر يمحو الشك ويثبت اليقين لعله أن يستطيع منه أن يزهق الباطل ويحق الحق المبين . ومن ثم أقبل على طريق الصوفية الذى يعتمد فيه أصحابه على القلب، ويدركون فيه الحقائق الالهية بالذوق والكشف ، وذلك بعد أن يأخذوا أنفسهم بالطاعة والاخلاص ، وتصفيتها من شوائب الحس بالرياضات والمجاهدات .

* * *

لقد أحس الغزالى فى أعماق نفسه ميلا عظيما الى طريق الصوفية ، واقبالا

قويا على مذهبهم ، وعد نفسه مدينا للتصوف والصوفية بأعز ما تهيأ له من معارف ، وأشرف ما تحقق به من لطائف ، ذلك بأنه قد ظفر بتمكين العقيدة من قلبه ، ومعرفة الحقيقة بذوقه : فهو يحدثنا فى « المنقذ من الضلال » بأنه بعد أن فرغ من علوم المتكلمين والفلاسفة ، ووقف على ما فى بعضها من ضعف ، وما فى بعضها الآخر من عجز وكفر ، أقبل بهمته على طريق الصوفية ، فاذا هو يعلم أن طريقهم انما يتم بعلم وعمل ، واذا هو يعكف على قراءة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبى طالب المكى ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى ، حتى وقف على كنه مقاصدهم العلمية ، وعرف أن طريق العلم عندهم ليس التعلم ، بل الذوق والحال وتبدل الصفات ، واذا هو يتبين أن حاصل عملهم هو قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتحقق له تخليتها عن غير الله ، وتحليتها بذكر الله ، واذا هو يدرك أنه لا مطمع له فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس هذا كله هو قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، واذا هو تنكشف له أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، واذا هو يعلم يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وأن طريقهم أصوب الطرق ، وأن أخلاقهم أزكى الأخلاق ، ذلك بأن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة الذى ليس وراءه على وجه الارض نور يستضاء به .

على أن الغزالى لم يقف عند حد نفسه يصفيها وينقيها ، ويبصرها وينورها ، ويحقق لها ما كانت تصبو اليه من غايات الحق والكمال ، وآيات الخير والجمال ، وانما هو قد تجاوز نفسه الى نفوس غيره من المسلمين ، يدعوهم الى الانصراف عن العقائد المضلة والبدع المزيغة ، والرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، والاقبال على طريق الصوفية فى حدود هذه السنة وذلك الكتاب ، فان كل أولئك عنده هو الطريق الحق الموصل الى معرفة الحق الذى لا شبهة فيه ولا غبار عليه ، والمؤدى الى الفوز بالسعادة القصوى والبهجة العظمى التى لا تعدلها بهجة أو سعادة أخرى . وعلى هذا النحو وجد الغزالى فى التصوف وأذواقه الروحية منقذه من الشك والضلال ، وسبيله الى اليقين والهدى فى ظل ذى الجلال .

الى السادة المشتركين

ترجو ادارة المجلة من السادة المشتركين ، الذين يرسلون اشتراكاتهم الجديدة ، و يطلبون تغيير عناوينهم ، أن يتفضلوا بذكر اسم السيد الذى حصل منهم اشتراك العام الماضى ، حتى يمكن الاهتداء الى رقم الاشتراك الخاص بهم .